

وأصدق من الشهود، ورائت السّامة على كل لقاء، وتغلّغت اللواعج والأشجان في كل فراق، وغلبت الأكدار على كل صفاء وكل رجاء، ولم يبقَ إلا أن يقبلها على أن يستغرق هو في حبها، ويسمح لها هي أن تفرغ لغيره وهذا مستحيل، أو يقبلها على أن يلهو بها وتلهو به وهذا أيضًا مستحيل، أو يسوم نفسه قطيعتها، وهذا ما قد عوّل عليه، وظن أنه استطاعه وقدّر عليه خمسة أشهر.

وأنه لفي حسبانهِ هذا يوشك أن يودّع القلق والأسر ويُقبل على الطمأنينة والحرية، إذا به يهاجم في الصميم، وإذا بالظواهر والبواطن كلها تضمن له وهي تتدفق عليه أنه عائد لا محالة إلى ما ودع من شقاءٍ وألمٍ، وليس بين تلك الظواهر والبواطن كلها ما يضمن له أقل ضمان أن يعود إلى ما ودّع من ثقةٍ ونعيمٍ، فماذا عساه أن يصنع؟ لا تسلك فكره ولا تسلك قلبه ولا تسلك ضميره، بل سلّ كل وشيجة من وشائج لحمه ودمه وأعصابه التي عزمت عزمها بغير اكتراث لفكره أو لقلبه أو لضميره، واستقلت بإرادتها وهي لا تترجم عن تلك الإرادة إلا بالعمل الواقع دون التفكير ودون التعليل ودون التفسير، فطلبت النجاة بالبداية المرتجلة وحملت الجسد الذي هي قوامه إلى خارج المنزل وهي لا تعي ولا تفقه إلى أين تسير، ولا لوم على من يطلب النجاة، فإنما هكذا تُطلب النجاة!